

سياسة الإدماج الاستعماري واللغة العربية في تونس

للدكتور محمد عبد المولى

لشعب تونس الذي تهر بقوة الحديد والنار واستسلم
للأمر الواقع . . .

ففى خلال 1881 فرضت فرنسا سياسة تعليمية
ترمى الى غاية الإدماج (l'assimilation) وأفضل وسيلة
لهذا الإدماج هى المدرسة وخاصة المدرسة الابتدائية
كما صرحت بذلك احدى الشخصيات الفرنسية ، لذلك
لا بد من استيراد المدرسة الفرنسية وقرسها فى بلدان
ما وراء البحار ، انها مدرسة فرنسا ببرامجها ونظامها
التربوى ومعلميها وكتبها بنفس عناوين فصول البرامج
المقررة فى مدارس فرنسا الام (. . .)

انها مدرسة فرنسا بوسيلة ادماجها القومية ،
التعليم فيها بالفرنسية فتصبح من ثم اللغات الوطنية
مهجورة وأكثر من ذلك ، محتقرة ، واذا ما استطاعت
اشكال التعليم الوطنى ان تبقى فانها تفقد اذذاك كل
قدرتها وفعاليتها .»

وفعلا حاولت سلطات الدولة الحامية ان تطبق
تلك السياسة فأول مسألة جابهتها بحزم هى مشكلة
اللغة ولكنها احتارت بين حلين : فأما الإدماج الكامل
وبالقوة لشعب تونس فى الامة الفرنسية ، كما حاولت
تطبيقه فى الجزائر ، وأما مسخ الشخصية الوطنية
ونسف قواعدها من لغة ودين واقتصاد . . . كخطوة
أولى للإدماج ، وأخيرا وقع اختيارها على الطريقة
الثانية . (1)

فى منتصف القرن التاسع عشر انتصرت فرنسا
باسم أوروبا المسيحية على القطر الجزائرى الشقيق .
وكان من نتائج هذا الانتصار تطبيق سياسة الإدماج
والفرنسة فى المغرب العربى عامة وتونس خاصة مع
اختلاف بسيط فى استعمال الوسائل والطرق المؤدية الى
نفس الغرض ان هذه السياسة الفرنسية قد نجحت
الى حد بعيد فى خلق مشاكل وفوضى فكرية ولغوية
 واجتماعية وتربوية فى بلدان المغرب العربى الثلاثة :

كان المخطط الاستعماري الفرنسى ، الى جانب
الاستغلال الرأسمالى والبشرى ، يرمى الى افراغ
الشخصية التونسية فى مضمونها الاجتماعى والقومى
لاحلال مضمون الشخصية الفرنسية محلها ، وقد انكب
على اعداد طرائق هذا المخطط الجهنمى . اساتذة
الاستعمار الفرنسى المتخصصون فى العلوم الانسانية
عامة واللغة والحضارة العربية والاسلامية خاصة ،
والعارفون بدقة التركيب النفسى والاجتماعى للفرد .

وبعد انتصار فرنسا باسم أوروبا المسيحية على
القطر الجزائرى نصبت الحماية على القطر التونسى .
وما يقال عن تونس يصدق كثيرا على المغرب الاقصى
نميا يخص سياسة الإدماج التى سلكتها الدولة الحامية .
« فباسم نعمة غامضة ، دعيت « بالحماية » قلبت
سلطات الاستعمار الفرنسى الاطار السياسى
والاقتصادى والاجتماعى ، وحاولت قلب الاطار الثقافى

(1) انظر : Thalbi : La Tunisie Martyre, Paris, Jouve et Cie, 1920, p. 37.

وعلى الرغم من المظاهرات الشعبية الصاخبة تمكن المستعمر من أن يجعل في النهاية اللغة الفرنسية لغة الإدارة والتعليم الرسمية بعد أن نقلت تدريجيا الدواوين الى اللغة الفرنسية واصبحت بالتالي اللغة العربية في صف اللغات المميزة كانتها لغة اجنبية .

هذا اذا استثنينا بعض تلك المؤسسات التعليمية والقضائية التي لا تزال تحافظ حتى اليوم على اللغة العربية .

كانت السياسة الاستعمارية ترمى من وراء هذه الفرنسية الى خلق جيل تونسي يكون بعيدا كل البعد عن معرفة لغته وثقافته الوطنية . وسوف لا يتم تكوين هذا الجيل الجديد حتى تصبح القطيعة ممكنة بينه وبين واقعه وشعبه وبين الماضي والحاضر عندئذ يفقد كل اتصال مثير بين الشعب من جهة ، وبين ابائهم المستترين من جهة اخرى فتقطع صلة الرحم ، وجميع امكانيات الاخذ والعطاء المثمرة بين الفريقين عند ذلك يصبح من السهل دمج العرب في الامة الفرنسية « الحامية » .

لكن الاستعمار نسي ردود الفعل العنيفة لشعب تونس ومثقفيه المتمسكين بلغتهم وبتقافتهم الوطنية ، لقد ناضل الشعب التونسي بكل عنف وقوة لمعركة وابطال السياسة الفرنسية مقاطع اول الامر المدارس الفرنسية واعتبرها خطرة ومضرة لتربية ابائهم ، ليست على كل حال ، مدارس الكافرين بالله ؟ .

وحتى يتمكن من نشر لغته وثقافته على نطاق واسع عهد المستعمر الى استخدام جميع وسائل الضغط المادية والبيسيكولوجية ، ومن ضمن هذه الوسائل الجهنمية استخدم طريقة معقدة جدا ومرحلية : كان العدو الاستعماري ذكيا في انتقاء طريقة الانتداب للخدمة العسكرية وهي تعتمد على الاغراء والقوة في آن واحد : فبعد ان اتخذ من الحاضرة نقطة ارتكاز اداري وثقافي في الشمال جعل الجنوب منطقة عسكرية . اعفى اولاً ابناء العاصمة من الخدمة العسكرية وذلك تكريما لبعض العائلات على توأمتها وعدم مقاومتها للحماية ، وتشجيعا لابنائها على الدخول الى المدارس الفرنسية ، كما اعفى ابناء الجنوب من الخدمة العسكرية انهاء لثوراتهم ومشاكلهم ، اما الباقي ، الوسط والساحل والجهات الاخرى فهي غير معفاة من الخدمة العسكرية وبذلك وجد الشعب التونسي نفسه بين فكين حادين او بين قوتين ارهايبيتين مرتكزتين في الشمال والجنوب .

ان الشعب التونسي بصفته شعبا عربيا مسلما ، يعتبر أن الخدمة العسكرية تحت العلم المسيحي المثلث علم الكفار ، بمنزلة الكارثة العظمى والطاقة الكبرى ، والمستعمر يعرف هذا الشعور معرفة دقيقة ، فقد استخدم المستعمر كل الوسائل لنشر لغته مثل نظام التفرقة والتمييز بين الفئات السكانية والجهوية باعفاء البعض وعدم اعفاء البعض الآخر من الخدمة العسكرية ، وكذلك اعفاء كل من يحصل على الشهادة الابتدائية . ان هذه الاساليب الجهنمية اجبرت بعض التونسيين على ادخال ابنائهم الى المدارس الفرنسية ، املا في الاعفاء من الخدمة العسكرية واذا لم يتحصل الشاب التونسي على الشهادة ولم تسعفه القرعة فله أمل آخر وهو التمويض بدفع مقدار مهم من المال .

وعلى الرغم من أن اغلبية العائلات التونسية آنذاك كانت قليلة الموارد الا انها كانت تضحى ، في اغلب الاحيان ، ببيع متاعها وارضها للمعمرين الفرنسيين وغيرهم حتى تتمكن من دفع غائلة الكارثة ، كارثة الخدمة العسكرية ، عن ابنائها ، كل هذه الاشياء ساعدت كثيرا على نشر اللغة الفرنسية كما ساعدت التوسع الاستعماري الراسمالي على حساب جماهير الشعب الواسعة .

امام هذه الاشياء جميعا ، وامام سياسة الادمج والفرنسة لعبت الثقافة القومية عن طريق اللغة العربية والدين الاسلامي دورا لا يضاهاى كانت الزيتونة والصادقية والخلدونية معقلا منيعا للدين واللغة والثقافة العربية التي هي اخص مقومات الامة وحجر الزاوية التي يبنى عليه صرح مجدها وعزها ، لقد عرقلت هذه المؤسسات الوطنية مشاريع ادارة التعليم العمومي الاستعمارية ومناورات مديرها «باشويل ولوسيان باي» وغيرهما كما قاومت بكل شدة جميع المشاريع الاستعمارية الاخرى مقاومة دفعت بخيرة ابنائها ورجالها الى الصفوف الامامية من المعركة الوطنية لتخليص المجتمع التونسي من التبعية الثقافية والاستغلال الاقتصادي والبشرى ولا ننكر ما قامت به المدارس القرآنية المصرية والمدارس العربية الاخرى في نشر التعليم باللغة العربية .

والجدير بالذكر ايضا أن الخلدونية قد لعبت دورا فعلا في تلقين العلوم المصرية عن طريق اللغة العربية ، الى جانب تدريس اللغات الحية كلغات ، ولا نغفل ايضا عن ذكر تجربة الشعبية المصرية الرائعة التي كانت اثناء الحماية اول تجربة تعريب ناجحة بعد تجربة الخلدونية الرائدة .